الأهوار العراقية
الواقع الحالي ومعوقات التطوير
دراسة سوسيو- انثروبولوجية

محمد حمود إبراهيم
جامعة ذي قار / مركز ابحاث الاهوار thiqaruni.org

المستخلص
تحاول هذه الدراسة تحديد المشكلات التي رافقت عملية إعادة الأهوار بعد عام ٢٠٠٣ ، هذه المشكلات المتشابكة فيما بينها والتي تحولت إلى معوقات حقيقية تقف عائقاً دون تطوير بيئة الأهوار في جنوب العراق . أن سوء التخطيط وعشوائية العمل والتخبط في التنفيذ التي رافقت هذه العملية زادت من المشكلة وكرستها بدلاً من أن تضع علاجاً لها. والباحث - معتمداً منهجية البحث العلمي السوسيولوجي والأنثروبولوجي - حاول من خلال هذه الدراسة الوصول إلى أدق النتائج علميةً وأكثرها موضوعية ، كما أنه حرص على وضع الأشياء بمسمياتها . وعلى هذا الأساس فان الباحث يطرح وجهة نظر علمية داعياً من خلالها إلى إعادة ترتيب آليات عملية إنعاش الأهوار بمجملها (تخطيطاً وبرمجةً وتنفيذاً) .
تحتوي هذه الدراسة على ثلاثة فصول رئيسة، بالإضافة إلى الملخص والنتائج ومجموعة التوصيات والمقترحات. وقد ضم الفصل الأول الذي حمل عنواناً رئيساً (الإطار العام للبحث) مشكلة البحث، وأهدافه، وأهميته، كما تناول أربعة فروض علمية رأى الباحث أنها الأقرب لتفسير وتحليل المشكلة. وقد جاءت هذه الفقرات ضمن المبحث الأول من هذا الفصل، فيما ضم المبحث الثاني مجموعة من أهم المصطلحات والمفاهيم العلمية التي وردت في هذه الدراسة ووجد الباحث ضرورة تعريف القارئ بها.
أما الفصل الثاني والذي جاء تحت عنوان (واقع الأهوار العراقية في الوقت الحاضر) فانه كان استعراضاً شاملاً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية والتعليمية لمجتمعات أهوار جنوب العراق . أن الباحث يعتقد أن الطرح الموضوعي لأوضاع البيئة الاجتماعية في الأهوار سوف يساهم في إعادة صياغة آليات الإنعاش التي ظلت متعثرة طوال الأربعة أعوام الماضية . لقد اعتمد الباحث عملية المسح الشامل لمناطق الأهوار في محافظات (البصر - ذي قار - ميسان)،و التي رافق فيها منظمة تطوير ثقافة عرب الأهوار dmaco في عملية مسحها الشامل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية للاهوار العراقية والتي استمرت طوال النصف الثاني من عام ٢٠٠٦ . وعلى هذا الأساس فان الباحث على ثقة تامة من صدق البيانات التي يطرحها في هذا الفصل لأنه شارك فعلياً في عملية المسح هذه والتي اعتمد القائمون بها على أهم الطرق العلمية المعمول بها في البحوث الاجتماعية والانثروبولوجية مثل الاستمارة الاستبيانية والمقابلة والملاحظة العلمية المباشرة .
وفي الفصل الثالث والأخير حدد الباحث وناقش أهم المعوقات التي رأى أنها تقف جداراً صلداً أمام عملية تغيير بيئة الأهوار وانتشالها من الواقع المأساوي الذي لازالت تعيشه . ولقد سمحت الحرية النسبية التي يعيشها المجتمع العراقي في الوقت الحاضر للباحث أن يتناول هذه المعوقات الرئيسة منها والفرعية كما انه استطاع أن يحدد الجهات المسئولة حسب تصوره وان يسميها بمسمياتها ، اعتقاداً منه بأن ذلك سوف يساهم في بناء حوارات علمية حتى داخل هذه المؤسسات من أجل تقييم أدائها وتحديد كبواتها وإعادة رسم خططها وبرامجها . وأخيراً فإن الباحث وضع مسؤولية الجزء الأكبر والأهم في عملية النكوص والتردي في بيئة الأهوار العراقية على عاتق الحكومات العراقية سواء أكانت قبل سقوط النظام أو بعده ولحد الآن .

الفصل الأول

الإطار العام للبحث

المبحث الأول

أولا_ مشكلة البحث : تعرضت الأهوار في جنوب العراق إلى مجموعة من النكبات على مر التسعة عقود الماضية ، منذ تشكيل الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ وحتى اليوم ، كان أبرزها من دون شك مأساة التجفيف في العقد الأخير من القرن العشرين، إلا أن الباحث يجد أن سلسلة المآسي هذه لم تنته مع سقوط النظام الدكتاتوري عام ٢٠٠٣ ، بل أن ما لحق ببيئة الأهوار بجانبها (الطبيعي والاجتماعي) في الأربع أعوام الماضية لا يقل أثرا وخطراً عن سياسات النظام السابق. ويتمثل الخطر الجديد في عشوائية التخطيط والتنفيذ، وما رافقها من فساد مالي، وإداري أدى إلى سريان الأموال المخصصة لانتشال الأهوار من واقعها المرير في قنوات غير شرعية. ومن خلال سير فقرات الدراسة سوف يحاول الباحث تشخيص طبيعة المشكلة بمختلف جوانبها، كما أنه يحاول إثبات فرضياته التي تقوم على أساس أن سياسة إدارة الأهوار في الوقت الحاضر هي السبب الرئيس في تلكأ عملية التطوير.

ثانيا_ أهداف البحث

يرمي الباحث من وراء هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف التي يمكن تحديدها بالآتي:-

١. محاولة الوصول والتعرف على الخيوط الدقيقة التي تتشابك فيما بينها، ممسكة بعملية إنعاش بيئة الاهوار ومانعة لها من الانطلاق .

٢. توضيح الخطأ الكبير الذي وقعت به الحكومات العراقية بعد سقوط النظام في عام ٢٠٠٣ عندما أوكلت مهمة إنعاش وتطوير الأهوار إلى جهات رسمية مختصة فقط في جوانب المياه والطبيعة مهملةً الجانب الأكثر حيوية وهو " الإنسان".

٣. تتبع عملية التطوير المتعثرة التي تمت فوق الأرض والتي رافقتها هالة إعلامية كانت تصور الأهوار بجنة عدن ، والتي تم في ظلها هدر ملايين الدولارات دون وجه حق .

٤. تشجيع الدراسات الاجتماعية والانثرولوجية في أهوار العراق، إذ يعاني هذا الجانب من الدراسات من نقص شديد مقارنة مع الاختصاصات الأخرى.

٥. وضع تصورات علمية أكثر موضوعية من أجل تصحيح الأخطاء السابقة، والبدء بانطلاقة جديدة تحقق إنجازات ملموسة في أرض الواقع وتتلافى أية أخطاء منهجية أو تنفيذية جديدة.

ثالثا- أهمية البحث: تأتي أهمية البحث من أهمية الأهداف التي أشرنا إلى ضرورة تحقيقها من وراء الدراسة أو هكذا يتمنى الباحث لها. أن إهمال الجانب (السوشيو- انثر وبولوجي) في الدراسات المتعلقة بالأهوار هو قصور واضح بل وفاضح لمصداقية وموضوعية هذه الدراسات ، إذ كيف يمكن لنا أن نتفق على أن أية عملية تنموية وتطويرية يمكن أن تحدث دون دراسة الإنسان نفسه. من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة لتؤكد أن الأهوار ليست مجرد محمية طبيعية يدرس فيها الماء والهواء والنبات والحيوان والطيور والأحياء المائية والأدغال، ويترك الإنسان الذي يجب أن تكون كل المفردات المشار إليها في خدمته وفي صالحه.

المبحث الثاني ـ أهم المصطلحات والمفاهيم العلمية:-

١. سكان الأهوار (عرب الأهوار)(*): وهم السكان الأصليين للاهوار والذين يعيشون في أعماق الأهوار ويتفاعلون مع بيئتها الطبيعية تفاعلاً تاماً، بحيث ينعكس هذا التفاعل على مجمل أنشطتهم الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية. يتأثر هؤلاء السكان بمجموعة من العادات، والتقاليد، والقيم، والأفكار، والمعتقدات التي تميزهم عن بقية المجتمعات الأخرى والتي تشكل النسق الثقافي لهم. كما أن لديهم مجموعة من الأنشطة الاقتصادية المرتبطة ببيئة الأهوار مثل قص القصب، وتصنيعه، وصيد الأسماك، والطيور، وتربية حيوان الجاموس، وبيع منتجاته، وجميع هذه المفردات تشكل النسق الاقتصادي لهذه المجتمعات .

٢. سكان ضفاف الأهوار(**): وهم السكان الذين يقطنون في مناطق ريفية محاذية للاهوار، وغالباً ما تصل الأهوار الموسمية إلى جزء من أراضيهم، إلا أن لديهم ما يميزهم عن (عرب الأهوار)،و يظهر ذلك في جوانب الثقافة والاقتصاد . غالباً ما يمارس هؤلاء أنشطة زراعية دائمة وموسمية مثل زراعة النخيل والرز والحنطة والشعير، كما أن لهم نسق ثقافي مميز نوعاً ما مع وجود فرو قات في الثقافات الفرعية بين منطقة وأخرى. ومع ذلك فان هناك بعض العوامل

تنويه :- لم يتطرق الباحث للدراسات السابقة في موضوع الاهوار والتي اشهرها من دون شك دراسة الجبايش للمرحوم د. شاكر مصطفى سليم لعدة اعتبارات أهمها :

أ- أن تلك الدراسات قد جرت منذ مدة طويلة تصل إلى حوالي ستة عقود ونصف.

ب- أن ظروف وأحوال بيئة الاهوار بجانبيها الطبيعي والاجتماعي التي جرت في ظلها هذه الدراسات لاتشابه بأي حال من الأحوال الظروف التي جرت في ظلها دراستنا الحالية والتي هي ظروف مابعد عودة الاهوار في ٢٠٠٣ .

ت- توخى الباحث الدقة العلمية والموضوعية في نقل صورة للأهوار في وضعها الحالي الذي يختلف فيه البناء الاجتماعي بشكل كبير عما كان عليه في العقود التي سبقت التجفيف في عام ١٩٩٣.

المشتركة التي تجمعهم بسكان الأهوار وان كانت ضعيفة .

٣. الثقافة culture : يوجد اختلاف في ترجمة مصطلح " culture " بين كل من الانثروبولوجين والسوسيولوجين ، إذ يعتقد أصحاب الطرف الأول بأن هذا المصطلح يشير إلى كلمة " حضارة "، فيما يذهب الطرف الثاني إلى أنها تشير إلى كلمة ثقافة. وسوف نشير إليها في هذه الدراسة على أنها " ثقافة "، والتي تعني وكما عرفها "تايلور" بأنها الكل المركب الذي يتكون من المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات والأعراف التي يتم اكتسابها من قبل الإنسان من خلال عضويته في المجتمع الذي يعيش فيه .(١) ولا يختلف تعريف " ريد فيلد " كثيراً عن هذا فهي عنده " مجموعة المفاهيم والمدركات المصطلح عليها في المجتمع والتي تظهر واضحة في الفكر والفن ومجموعة الحرف التي يمارسها ذلك المجتمع من خلال استمراريتها ودوامها عن طريق التقاليد والتي تميز الجماعة الإنسانية عن غيرها بشكل واضح"(٢) . إما عند (كر وبر وكلاكهون) فأنها تعني جميع مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ ، الصريحة منها والضمنية ، العقلية منها وغير العقلية والتي هي موجودة في أي وقت كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة(٣).

٤. التطور الاجتماعي Social evolution:- وهو عملية تطور تدريجي، يحدث إما بصورة عفوية، أو بصورة موجهة في منظومة الأفكار، والنظم، والمعايير، والتطبيقات، والعلائق، والفعاليات الاجتماعية السائدة في المجتمع. ويقوم مفهوم التطور على فكرة إن النظم الاجتماعية كافة تمر بمراحل معينة تنتقل من خلالها من مرحلة بسيطة إلى مرحلة أكثر تعقيداً (٤) ومن هنا تأتي أهمية التطور الاجتماعي الموجه لسكان الأهوار في الوقت الحاضر والمستقبل من أجل إحداث عملية التطور التدريجي في المنظومة المشار إليها آنف.

٥. التغير الاجتماعي Social change :- وتشير الانثروبولوجيست " لو سي مير" إلى أن هذا المصطلح "Social chang " " هو مصطلح شديد القرب في معناه من مصطلح تغير ثقافي " Cultural change " فيتطابق معنيا المصطلحين. ويعني التغير الاجتماعي بعامة التبادلات الهامة في العلائق والنظم والقيم والمعايير والعادات الاجتماعية الثابتة والنسبية التي تكون البناء الاجتماعي، نتيجة لمؤثرات وعوامل حضارية واقتصادية وسياسية تتفاعل مع بعضها البعض .(٥)

٦. محو ألامية illiteracy ereadication:- تعاني مجتمعات الأهوار من ارتفاع نسب الأمية بين أفرادها ، وللأمية محوران أولوهما الأمية الأبجدية التي تعني عدم القدرة على القراءة والكتابة والحساب ، والمحور الثاني وهو الأمية الحضارية. وإذا كان المحور الأول يتكرس وينتشر في المجتمعات التقليدية وخصوصاً تلك التي تتعرض لنكبات مستمرة تجعلها عاجزة عن محو أميتها الأبجدية ، فان الأمية الحضارية وللأسف منتشرة في العديد من مجتمعات العالم الثالث ومنها مجتمعاتنا العربية في الأرياف والمدن على حد سواء. من هنا يتضح لنا أن أمية سكان الأهوار مزدوجة تجمع بين الأمية الأبجدية والأمية الحضارية. إما محو الأمية فيعني في ابسط صورة القيام بوضع البرامج والخطط (وتنفيذها) الكفيلة بتحرير السكان الأميين من أميتهم وتعليمهم القراءة والكتابة والحساب ورفدهم بصورة موازية لذلك بالمعارف الحضارية التي تزيل عنهم غشاوة الأفكار العقيمة التي وقفت ولا زالت تقف معوقاً صلباً في عملية التغيير والتطوير لديهم.

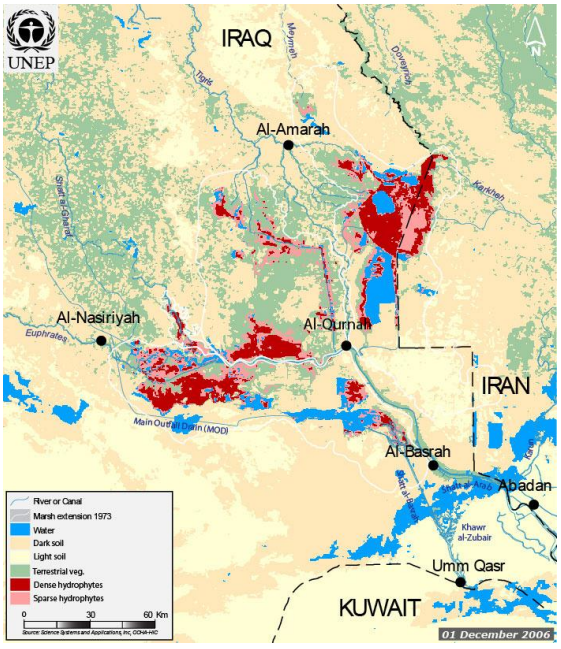

صورة رقم (١) تمثل مناطق الاهوار في المحافظات الثلاثة (بصرة – ذي قار – ميسان) .
المصدر : برنامج الأمم المتحدة للبيئة " UNEP " في ١ / كانون الأول / ٢٠٠٦ .

الفصل الثاني

(*) (**) اعتمد الباحث في صياغة هذين التعريفين على استنتاجاته الخاصة نتيجة لمعايشته العلمية لمناطق الاهوار طيلة الأربعة أعوام الماضية . أن من الأخطاء الفاحشة التي كانت تقع فيها الدراسات السابقة هي المزج بين هذين الصنفين مما يؤدي إلى ظهور نتائج غير واقعية بل ومشلولة .

واقع الأهوار العراقية في الوقت الحاضر

سوف نناقش في هذا الفصل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية لمجتمعات الاهوار، ولابد من تصنيف هذه المجتمعات في بداية الأمر إلى مجتمعات تعيش في أعماق الأهوار ومجتمعات تعيش على ضفاف الأهوار ، والفرق بين القسمين هو فرق واضح وجلي ، ولا بد من اعتماده إذا ما أريد إنقاذ الأهوار مما هي فيه من محنة في الوقت الحاضر. أن الخلط بين الصنفين هو احد الأسباب الرئيسة التي قادت جميع المحاولات السابقة لإنعاش الأهوار في الأعوام الماضية إلى الفراغ.

وتتوزع مجتمعات الصنفين على الأهوار الحالية الموجودة أيمن نهر الفرات والمحصورة بين قضاء سوق الشيوخ في محافظة ذي قار، وقضاء المدينة في محافظة البصرة ، والاهوار الجزئية المتناثرة على جانبي نهر العز، وفي المنطقة المحصورة بين قضائي الميمونة في محافظة ميسان وحتى كرمة علي في محافظة البصرة. أما الأهوار الوسطى (والبعض يضم المجموعة الثانية إليها) فهي التي تقع بين أيسر نهر الفرات في المنطقة المحصورة بين ناحية الإصلاح في محافظة ذي قار، وناحية الهوير في محافظة البصرة من جهة، وبين الجهة اليمنى من نهر العز ير وضمن المناطق التي تم تحديدها آنفاً. بالإضافة إلى اهوار شرق دجلة القليلة والموجودة حالياً ضمن الجانب العراقي من أهوار الحويزة القديمة . ولا يعني هذا الأمر بأي حالٍ من الأحوال أن الأهوار المشار إليها هنا هي أهوار كاملة ومتصلة فيما بينها، أوهي بالوضع المتعارف عليه عن الأهوار في السابق ، إذ لا تؤدي هذه الأهوار دورها الوظيفي كبيئة طبيعية نقية حاضنة للمجتمع الذي يعيش فيها . لقد تم الإشارة إليها هنا لغرض تحديد المناطق التي تشملها الدراسة (أعماق وضفاف)، أما التحديد الإداري فان القرى والمستوطنات ولكلا الصنفين تتوزع على أقضية ونواحي سوق الشيوخ، والفضلية، والعكيكة، وكرمة بني سعيد، والطار، والجبايش، والفهود، والحمار، والإصلاح في محافظة ذي قار . وكرمة علي، والهارثة، والدير، والشافي، والقرنة، وطلحة،والثغر، والمدينة، والهوير في محافظة البصرة . وقلعة صالح، والعز ير، والمجر الكبير، والخير، والميمونة، والسلام، والكحلاء، وبني هاشم، والمشرّح في محافظة ميسان.

ويتضح لدينا أن سبعة وعشرين وحدة إدارية بين قضاء وناحية تحتضن القرى والمستوطنات التي يتم تصنيفها على إنها قرى أعماق اهوار أو قرى ضفاف اهوار وتتوزع هذه الوحدات الإدارية على المحافظات الثلاث (بصرة ، ذي قار ، ميسان) بواقع تسعة وحدات إدارية لكل محافظة. أن هذه التقسيمات والتصنيفات تساعد على التشخيص الدقيق للمشكلات، كما أنها تساهم في وضع تصورات شفافة وعميقة تتغلغل داخل التكوينات الطبيعية والاجتماعية في الأهوار ،وأيضا فهي تجعل من التخطيط والبرمجة والتنفيذ وتوزيع المسؤوليات يتم بصورة أكثر دقة وعلى اقل ما يكون من الأخطاء المنهجية المتوقعة.

أولاً- سكان أعماق الأهوار:

ويشمل هذا التصنيف السكان الذين يعيشون في الأهوار في الوقت الحاضر فعلاً، ويمارسون أنشطتهم وفعالياتهم الحياتية من خلال تفاعلهم المباشر مع البيئة الطبيعية للاهوار. ولهؤلاء السكان تسميات أخرى متعارف عليها عالمياً مثل عرب الأهوار "Arab Marshes" أو محلياً ويطلق عليهم " المعدان". ويعتبر هؤلاء هم السكان الفعليين للاهوار،و لقد حدثت لهؤلاء السكان مجموعة من الهجرات منذ خمسينات القرن العشرين ، كان أغلبها يتم بصورة إجبارية ، كالهجرات التي حدثت بعد ارتفاع مناسيب المياه في الأهوار على أثر السداد التي أقيمت حول حقول النفط ، أو تلك التي أقيمت في وقت لاحق كسواتر قتالية في الجبهة مع إيران في العقد التاسع من القرن الماضي . ثم شكلت الحرب مع إيران سبباً مباشر لهجرة سكان اهوار شرق دجلة في محافظتي البصرة وميسان . إلا أن الهجرة الأكبر حدثت في بداية العقد الأخير من القرن العشرين على اثر عملية التجفيف الشاملة للاهوار وما رافقتها من عمليات حربية جرت ضد السكان ، اضطرتهم على الرحيل إلى أشتات متفرقة من العراق . لقد كانت هجرة سكان أعماق الأهوار " المعدان " داخلية إذ لم يحاول هؤلاء السكان، كما حاول إقرانهم في المجتمعات الريفية المحاذية، الهجرة إلى خارج العراق ، والسبب في اعتقادي يرجع إلى ارتباطهم الجدلي بالحيوانات التي يربونها، وبالبيئة التي تحتضنهم وتحتضن حيواناتهم. إن انخفاض الوعي العام لدى هؤلاء السكان نتيجة ارتفاع مستوى الأمية والتخلف الاجتماعي بين مختلف فئاتهم العمرية وأجناسهم، جعلهم لا يفكرون في حلول أخرى . لقد أثبتت التجربة أن هؤلاء السكان قد استطاع قسم منهم من أن يتكيف مع الحياة الجديدة في البلدات والمدن التي نزحوا إليها وقد آثر الكثير من هذه المجتمعات خاصة تلك التي استوطنت في جنوب العراق ولم تغادر إلى مناطق ابعد ، آثرت الاستقرار وعدم العودة إلى الأهوار ثانية ، بينما قام قسم منهم بالانشطار البيئي ، عندما قرر الرجوع جزئياً إلى الأهوار في الوقت الذي يبقى مقر إقامته الدائمة في المدينة ، وهكذا تنشطر العائلة إلى قسمين ، القسم الأكبر يسكن في المدينة بينما يذهب القسم الآخر إلى

الأهوار كجزء من العمل الميداني الذي يتطلبه رعي حيوان الجاموس التي لا يريدون التخلي عنها نهائياً. إن نشوء هذا الوضع الجديد ناتج بالإضافة إلى اكتشاف هؤلاء " النازحين " لصور ومعان جديدة للحياة تختلف عن الصور والمعاني التي كانوا يحيون في ظلها في الأهوار، وأيضاً خيبة أملهم في العودة المتعثرة للاهوار وإحساسهم أن عملية إنعاش الأهوار ماهي إلا قضية إعلامية وتجارية لا يرجى لهم من ورائها فوائد ملموسة على أرض الواقع. أما الذين هاجروا إلى وسط وغرب العراق فقد كانت عودة اغلبهم اضطرارية وتحت تهديد السلاح وهكذا فقد عاشوا ازدواجية التهجير ألقسري من الأهوار بعد عام ١٩٩١ والى الأهوار بعد عام ٢٠٠٣ .

الديموغرافيا(٦)

لا يزيد عدد قرى أعماق الأهوار " المعدان" الموجودة فعلاً في أهوار المحافظات الثلاث عن (١٠٠) قرية منها (٤٠) قرية في محافظة ذي قار ، و(٢٥) في محافظة البصرة و (٣٥) قرية في محافظة ميسان. يصل عدد العائلات في هذه القرى مجتمعة إلى (٦,٦١٢) عائلة بينما يصل مجموع السكان فيها إلى (٥٨,٤٨٢)، يبلغ عدد الذكور منهم (٢٨,٨٢٧) فيما يبلغ عدد الإناث (٢٩,٦٥٥).

وبتقسيم هؤلاء السكان إلى فئات عمرية ، نجد أن مجموع الأطفال الذين تتراوح أعمارهم تحت فئة اقل من ستة أعوام إلى (١٦,٤٦٥)، بينما يصل عدد أفراد الفئة ألثانية والمحصورة بين(٦ -١٢) سنه والتي تمثل فترة الطفولة المتوسطة والمتأخرة والمتمثلة بفئة الدراسة الابتدائية إلى (١٣,٦٨٦) (لكلا الجنسين)، بينما يبلغ مجموع أفراد الفئة الثانية والمحصورة أعمارهم بين (١٣ – ١٩) عام إلى (٨,٦٢٨) ولكلا الجنسين فيما يبلغ مجموع الفئات العمرية التي هي أكبر من ١٩ فما فوق (١٩,٤٩٣) وأيضا لكلا الجنسين .

التعليم(٧)

تعاني هذه المجتمعات من نقص واضح وشديد، بل ومن فقر كبير في واقع التعليم، إذ تشكل الأمية نصيب الأسد عندما تبلغ (٢٧,٤٢٥)* من مجموع السكان ، بينما يصل إعداد الأفراد الحاصلين على شهادة الابتدائية ما مجموعه(١٤٢٠) في الوقت الذي يصل مجموع الأشخاص من الذين اجتازوا الابتدائية إلى (١١,٥٣٢).وهذا من دون شك واقع مؤلم ومرير بل ومأساوي إذا ما أدركنا أن الأمية تصبح بيئة مناسبة تحتضن الأفكار والعادات والقيم والأعراف التقليدية التي تشكل النسق الثقافي لهؤلاء السكان والذي يلعب بدوره دوراً فاعلاً ونشيطاً في قولبة السلوك الاجتماعي والاقتصادي لهؤلاء السكان في قوالب جامدة، تنتج باستمرار عوامل معيقة للتطوير والتغيير. أن هذا الأمر ساهم في استكمال حلقات الدوامة التي يدور هؤلاء فيها والمتمثلة بمفردات (الأميةوالفقروالمرض والتخلف). ولا يعود سبب ارتفاع ألامية بين هذه المجتمعات إلى عدم رغبة السكان بالتعليم، بل يعود السبب الرئيس إلى الظروف المعقدة التي عاشها هؤلاء ولازالوا يعيشون في ظلها والتي سوف نناقشها بشيء من التفصيل في الفصل الثالث.

* يمثل هذا الرقم السكان بكافة فئاتهم العمرية عدا الأطفال دون السادسة والذين هم خارج سن المدرسة ، وهذا يشير إلى أن نسبة الأمية سوف ترتفع إذا ما أضفنا هذه الفئة إليها.

النشاط الاقتصادي

يمارس هؤلاء السكان أنشطة اقتصادية ترتبط ببيئة الأهوار إلى حد بعيد.تتمثل هذه الأنشطة برعي الحيوانات وتربيتها وبيع منتجاتها من الحليب والصناعات المرتبطة به، والنشاط الآخر هو قص القصب والبردي وتصنيعه وبيع منتجاته، بينما يتعلق النشاط الثالث بصيد الطيور والأسماك وبيعها. ومن خلال مراجعتنا للأرقام التي تتحدث عن أعداد الجاموس والأبقار نستطيع أن نلمس مقدار الثروة التي يمتلكها بعض هؤلاء السكان وان كان ذلك بصور متفاوتة ، إلا أنهم لا يعترفون بأن هذه الثروة تشكل مصدر رئيس في دخولهم الفردية، ولا يستطيع هؤلاء أن يوظفوا هذه الثروة أو جزء منها في تغيير حياتهم نحو الأفضل، لذلك نجد أن هناك مفارقة اقتصادية تتمثل بوجود الملكية والفقر معا ، ففي الوقت الذي يمتلك هؤلاء السكان ثرواتهم الحيوانية التي لها قيمتها الاقتصادية الكبيرة، نجد أنهم يعيشون في ظروف معيشية وصحية وثقافية غاية في الانحطاط ، وتعود هذه المفارقة إلى عدة أسباب أهمها غياب الوعي الاجتماعي العام نتيجة لارتفاع نسبة الأمية وشيوع الثقافة التقليدية الأمر الذي يؤدي إلى عدم استطاعة هؤلاء السكان على توظيف هذه الأموال في تطوير حياتهم .

وبلا شك وكما في معظم المجتمعات التقليدية فإن الأوضاع المعيشية المزرية تنعكس بصورة خاصة على الأطفال والنساء الذين يدفعون ذلك من صحتهم وتعليمهم، وبصورة عامة من مستقبلهم الذي يبدو سلفا اجتراراً لواقع آبائهم وماضي أجدادهم . أن نظرة سريعة على الجداول الخاصة بنوع المنازل المبنية من مادة القصب وانعدام أو فقر مصادر الكهرباء والماء الصالح للشرب وانتشار الطرق البدائية في عمليات الصرف الصحي تدلنا بصورة واضحة على مدى تعقد هذه المشكلة وصعوبتها.

ثانياً – سكان ضفاف الأهوار:

وهم سكان المناطق الريفية التي تقع غالباً حول أو بالقرب من الجداول والأنهار التي تصب في الأنهار. ويبدو من هذا التحديد أن هؤلاء يمثلون سكان الأرياف التي تقع ملاصقة أو على مقربة من الأهوار. وعلى هذا الأساس فإن هؤلاء السكان ريفيين ويختلفون عن مجتمعات أعماق الأهوار (المعدان) اختلافاً بيناً في مختلف الأنساق السايكولوجية والاقتصادية والثقافية والقرابة التي تشكل بمجموعها البناء الاجتماعي لأي مجتمع في العالم .

أن للأيكولوجيا دورها الفاعل في تشكيل أساسيات الأنماط الاقتصادية خصوصاً في المجتمعات التقليدية، ويتمازج ذلك ويتداخل مع الثقافة التي تتشكل من مجموع العادات والتقاليد والأعراف والقيم التي تميز مجتمع عن مجتمع آخر.هذا التميز الذي لا يظهر في المجتمعات الكبيرة فقط بل وحتى في المجتمعات الصغيرة التي يشار أليها بالثقافة الفرعية sub Culture . من هنا يتبين لنا كم هو الفرق بين مجتمعات أعماق الأهوار(المعدان)، وبين مجتمعات الريف المحاذي والقريب من الأهوار ولا يجد المرء عناءً عندما يفتش عن هذه الفروق التي يجدها في الثقافة والاقتصاد بصورة جلية للغاية.

ومن المشكلات التي واجهت عمليات التخطيط في مناطق الأهوار والأرياف المحاذية لها منذ تشكيل الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١، هو الوقوع في خطأ المزج بين الصنفين . لقد كان يتم في الفترات التي سبقت سقوط النظام ضم سكان أعماق الأهوار إلى المناطق الريفية المحاذية لها ، أما في الفترة التي تلت سقوط النظام وحتى هذا اليوم فقد تم ضم سكان الريف إلى الأهوار . والأمران خطئان وخطيران، دفع ثمنيهما سكان أعماق الأهوار في السابق عندما لم ينالوا أية منجزات خصصت أهدافها إلى الريف لأنهم لم يكونوا ينتمون لهذا الريف لا مكانياً ولا روحياً، لذلك ظلوا بعيدين عن أية برامج تغيرية تنتشلهم من واقعهم المرير الذي كانوا فيه. وفي الوقت الحاضر فإن الطرفين يتعرضان لنتائج سلبية ناجمة عن سياسة التخبط والعشوائية والغوغائية التي تسمى إنعاش الأهوار والتي فاقمت من مآسي الصنفين (أعماق وضفاف)، عندما عجزت عن تقديم أي دليل ملموس وواقعي على الأرض في أعماق الأهوار، في الوقت الذي وصلت فيه مساوئ الغمر العشوائي إلى نسب لم تكن تحصل حتى في العقود الماضية بالنسبة لسكان الأرياف المحاذية عندما تم إغراق أراضيهم المزروعة بالأشجار الدائمة (النخيل)،أو بالمزروعات الموسمية (الحنطة والشعير والرز)، والتي تعرضت خاصة في عام ٢٠٠٦ إلى خسائر كبيرة،وأكبر مثال على ذلك ما حصل في غمر مناطق ريفية كبيرة وإغراق محاصيلها في قضاء سوق الشيوخ ونواحيه.

وتبلغ مجموع القرى التي يمكن تصنيفها إلى مناطق و مستوطنات ريفية محاذية للاهوار إلى ما مجموعه (١٨٠) قرية تتوزع بواقع (٩٠) في محافظة ذي قار، و (٥٣) في محافظة البصرة، و (٣٨) في محافظة ميسان . ويصل سكانها مجتمعين إلى ما مقداره (١٨٥,١٢٣). أن مجموع هؤلاء السكان يمكن تقسيمه إلى (٩٢,٣٢٠) ذكور و (٩٢,٨٠٣) إناث، يتوزعون على (١٨,٩٠٣) عائلة تستقر في القرى والمستوطنات التي تتبع إداريا إلى أقضية ونواحي سوق الشيوخ والفضلية وكرمة بني سعيد والعكيكة والطار والفهود والحمار والجبايش والإصلاح في محافظة ذي قار. واقضيه ونواحي الهارثة وطلحه والدير والقرنة والثغر والمدينة والهوير في محافظة البصرة.وأقضيه ونواحي قلعة صالح والعز ير والكحلاء وبني هاشم والمجر والخير والميمونة والسلام في محافظة ميسان(٨) .

التعليم

وتشير مستويات التعليم إلى تغيير ملموس وكبير في هذه المناطق مقارنةً بمجتمعات (أعماق الأهوار) ، إذ تصل نسبة الأمية إلى (٢٠%) بينما تصل نسبة الحاصلين على الشهادة الابتدائية إلى (٢٩%)، في حين تصل نسبة الحاصلين على الشهادة المتوسطة إلى (٢٢%)، والإعدادية إلى (١٥%). وتصل نسبة الحاصلين على الدبلوم والبكالوريوس إلى ما نسبته(١٤%)من مجموع السكان الذين هم في سن المدرسة فما فوق. وعلى الرغم من ذلك فان الحصار الاقتصادي في العقد الأخير من القرن العشرين قد لعب دوراً كبيراً في نكوص التعليم بكافة مراحله في مختلف مناطق العراق وبصورة خاصة في المحافظات الجنوبية وسكان الريف المحاذي للاهوار منها بصورة أخص . وتظهر لنا ظاهرة غريبة ربما غير موجودة في أي مجتمع آخر تشير إلى عمليات النكوص التي حدثت للتعليم في هذه المناطق ، وتتمثل هذه الظاهرة في ارتفاع نسب ألامية بين الفئات العمرية التي تمثل الطفولة والشباب بصورة اكبر من الفئات العمرية التي تكبرهم بالعمر . أن المنطق يظهر وجوب انخفاض مستوى الأمية مع مسيرة المجتمع تدريجياً، إلا أن ما حدث في عقد التسعينات ولا زال يحدث حتى هذا اليوم في مناطق الأرياف المحاذية للاهوار في جنوب العراق هو ارتفاع نسب الأمية طردياً مع ارتفاع السكان مما يشير إلى تعطل أو تلكؤ المؤسسات التعليمية في هذه المناطق، بالإضافة إلى استمرار عملية إفقار هذه المناطق الذي

يؤدي بالتالي إلى عدم إرسال السكان لأبنائهم إلى المدارس ، أما لعدم اقتناعهم بدور المدرسة في عملية التغيير أو لعدم قدرتهم على تأمين متطلبات المدرسة لأبنائهم، أو لعدم وجود مدارس في المناطق التي يعيشون فيها، أو لحاجتهم إلى جهود أطفالهم في رعي الحيوانات وغيرها من الأنشطة الاقتصادية، إذ غالباً ما يتم تسخير هؤلاء الأطفال في أنشطة اقتصادية وهم في أعمار مبكرة ، ويظهر سبب آخر يتمثل في عدم حصول هؤلاء الأطفال على درجات النجاح بسبب ظروف الدراسة المختلفة التي تساهم في عدم استيعاب التلميذ للمادة التي يدرسها. وتتوزع هذه الظروف المحيطة بين رداءة بناية المدرسة والأمور الأخرى المتعلقة بها من إضاءة وتهوية وغرف درس وساحات لعب ، ناهيك عن انعدام وجود المختبرات وقاعات الفن والرياضة ، بينما يظهر سبب آخر يتعلق برداءة المناهج التقليدية التي لازالت تلقن الأطفال بصورة إجبارية، وعدم اعتماد الطرق الحديثة التي تيسر للطفل عملية الخلق والابتكار. وتظهر أسباب أخرى تتعلق بالمؤهل العلمي الذي يحمله المعلم وبموقع المدرسة من المدينة أو القرية وبالمجتمع المحيط وغيرها.

الأنشطة الاقتصادية

أن المجتمعات الريفية المحاذية للاهوار في المحافظات الثلاث (بصرة ، ذي قار ، ميسان) وبسبب استقراها الطويل استطاعت أن تبني أنظمة اقتصادية أكثر تطوراً من مثيلاتها عند مجتمعات أعماق الأهوار . لقد استطاعت مجتمعات الأرياف في عموم العراق أن تغير أنظمتها التقليدية تدريجياً منذ منتصف القرن العشرين ، وان كان هذا التغير ليس بالسرعة المطلوبة ، إلا انه كان هناك تغير بطيء يحدث باستمرار مع توقفات في هذه المسيرة عبر الستين عاماً الماضية . لقد لعب التعليم دوراً هاماً في عملية التغيير الثقافي لدى فئات الشباب مما ساعد أخيراً في تطوير الأنشطة الاقتصادية في الريف . إلا إننا لا نستطيع أن ننكر أن الحرب العراقية – الإيرانية – ومن ثم الحصار الاقتصادي قد ساهما في عملية نكوص المسيرة الاجتماعية في عموم العراق وكان أثرها بصورة اكبر وافضع في الريف، وبالطبع الريف المحاذي للاهوار هو جزء من ذلك .

أن هذا التصور لا يعني بأية حال من الأحوال أن الريف المحاذي للاهوار قد كان يعيش حياة هانئة مستقرة في الفترة التي سبقت سقوط النظام أو حتى في الوقت الحاضر. لقد تعرضت هذه المناطق بعد عام ١٩٩١ وطوال اثنتي عشرة سنة لاحقة إلى شتى صنوف الإهمال والحصار المزدوج (الدولي والمحلي). ولقد تمثلت أبشع صورة له في عملية تغيير مسارات الأنهار التي تستقر عليها المجتمعات وغلق منافذها وإنقاص الحصة المائية لها من مصادرها في أعالي دجلة والفرات ، فتحولت هذه المناطق إلى أراضي جرداء مقفرة تهدد سكانها بالفناء . لقد هاجرت هذه المجتمعات مجتمعة تارة ومنفردة تارة أخرى إلى مناطق مختلفة من العراق توزعت بين الفرات الأوسط ومحافظات واسط وديالى والانبار وصلاح الدين وكركوك وضواحي بغداد . لقد حققت السياسة المنظمة أهدافها في طرد هؤلاء السكان من مناطقهم وتشريدهم في مختلف أنحاء العراق ، ولقد كان هذا العقاب يمارس على أبشع وافضع صورة من صور العقاب التي يمارسها الطرف الغالب على الطرف المغلوب في النزاعات العرقية والاثنية . هذا بالطبع بمعزل عما حدث لأبناء هذه المجتمعات بعد انتفاضة آذار ١٩٩١ من مقابر جماعية وسجون ومعتقلات ومطاردات وقطع أرزاق وأعناق وتشريد إلى معسكرات للاجئين في مختلف أنحاء العالم.

لقد تعرض البناء الاجتماعي في الأرياف المحاذية للاهوار إلى التصدع إن لم يكن إلى الانهيار في بعض الأحيان ، ولقد حاولت المجتمعات العائدة إلى مناطقها من إن تعيد صياغة وترميم نظامها الاجتماعي والاقتصادي مرة ثانية بعد التجارب المريرة التي تعرضت لها والتي أوصلتها إلى نتيجة مهمة للغاية، تتلخص في انه لا يوجد هناك مكان أفضل من مناطقهم على علاّتها لأنها وببساطة تحتضنهم دون أن تشعرهم بما يمس كرامتهم كما كان يحدث لهم وهم يعملون كفلاحين أو عمال وأجراء عند المجتمعات التي هاجروا إليها.

لقد كان من المؤمل - وهذا ما يفرضه المنطق على الأقل – أن تحظى هذه المناطق برعاية خاصة، إلا أن جهات عديدة وللأسف جيرت مآسيهم ومآسي جيرانهم سكان أعماق الأهوار لتنفتح من ورائه أبواب للاسترزاق . لقد تعرضت مناطق الأرياف المحاذية للاهوار لعمليات تخريبية عندما صارت أراضيها تتعرض للغرق تحت شعار " جنة عدن تعود من جديد " في إشارة إلى حملة عالمية تنتشل الأهوار من واقعها المؤلم إلى واقع براق . وقد تم خداع هؤلاء السكان خدعة " الخير قادم مع المياه" ، إلا أن الغمر العشوائي لوزارة الموارد المائية وهي تحاول أن تغمر اكبر قدر ممكن من الأراضي حتى لو كانت ريفية ومن ثم الادعاء أمام الجهات الدولية المانحة أن الأهوار يتم إعادتها في هذه العمليات.

الخدمات والبنى التحتية:

لقد أنجزت مجموعة من المشاريع الخدمية الصغيرة والمتوسطة في العامين المنصرمين في المناطق المحاذية للاهوار ، تم إنجازها من التخصيصات المالية لمجال المحافظات الثلاث ومن

بعض المنظمات الدولية العاملة في جنوب العراق. إلا أن عملية الإهمال الطويلة التي تعرضت لها هذه المناطق طوال العقود الماضية لم يجعل من هذه المشاريع الجديدة ذات شأن يذكر يمكن أن يساهم في عملية تغيير حياتية واضحة ومميزة . ومع اعترافنا بالحاجة الماسة لسكان ضفاف الأهوار لمئات أخرى من المشاريع المشابهة حتى يمكن أن نصل إلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والايكولوجي المناسب لحياة الإنسان ، إلا أننا لابد وان نشير بأن عملية تهميش مناطق أعماق الأهوار لازالت مستمرة ولازالت حلقتها متصلة مع العقود المظلمة التي عاشوها منذُ أواسط القرن العشرين . أن الجهات المسئولة عن التخطيط والتنفيذ في المشاريع المشار إليها ، وبسبب التحيز المجتمعي ، ونقص الخبرة اللازمة ، والتخبط و العشوائية ، أو عدم سعة الأفق في النظر للمجتمعات التي تقع تحت رعايتها ، أو بسبب التصادم مع مصالحها، قامت هذه الجهات بالعمل خارج مناطق أعماق الأهوار والتي هي بأمس الحاجة لأية مشاريع خدمية وتطويرية تقام في مناطقهم.

لقد حاولت في هذه الفقرة من الفصل الثاني أن اترك المجال الواسع للغة الأرقام والبيانات في الجداول التي سوف توضح الاحتياجات الضرورية والملحة لمناطق أعماق وضفاف الأهوار. وسيقتصر التعليق فقط بأرقام الجداول ومحتوياتها . تاركاً الأمر للقارئ (الباحث والمطلع) في دعم الفكرة التي قامت على أساسها هذه الدراسة والتي تتلخص في أن أهوار جنوب العراق تعيش في حالة مأساوية وان واقعها الراهن هو واقع مرير ، على الرغم من التطبيل الإعلامي طوال الأربعة أعوام المنصرمة مما يشير إلى أن هناك مجموعة من المعوقات التي تقف سداً منيعاً أمام عملية التطوير المنشودة والتي سوف نناقشها بشيء من التفصيل في الفصل الثالث والأخير.

جدول(٢)أهم الأنشطة الاقتصادية التي يمارسها سكان أعماق الاهوار.

المحافظة	النشاط الاقتصادي					المجموع
	تربية حيوانات	قص القصب وتصنيعه	الصيد	الزراعة	أخرى	
بصرة	٢,٦٠٠	٠,٦٢٠	١,٠٧٠	٢١٤	٣٥٩	٤٨٦٣
ذي قار	٠,٩٣٥	١,٣٨٠	٠,٥٩٣	١٥٠	٣٣٦	٣٣٩٤
ميسان	٢,٧٥٠	٠,٤٠٠	٢,٥٠٠	٤٢٥	٣٦٢	٦٤٠١
المجموع	٦,٢٨٥	٢,٤٠٠	٤,١٦٣	٧٨٩	١٠٥٧	١٤٦٥٨

جدول (٣) الثروة الحيوانية في قرى أعماق الاهوار.

المحافظة	الحيوانات			المجموع	الملاحظات
	جاموس	أبقار	أغنام		
البصرة	٩,٨٩٢	٤,٨٢٠	٠,٨٦٣	١٥,٥٧٥	
ذي قار	٥,٣٢٤	٢,١٢٢	٠,١٥٠	٧,٥٩٦	
ميسان	١١,٥٣٦	١٣,٥٢٠	٣,٢٥٠	٢٨,٣٠٦	
المجموع	٢٦,٧٥٢	٢٠,٤٦٢	٤,٢٦٣	٥١,٤٧٧	

المصدر : منظمة تطوير ثقافة عرب الأهوار " DMACO "

جدول(١)مؤشرات السكان في قرى أعماق الاهوار في جنوب العراق.

ت	المحافظة	عدد القرى	عدد العائلات	أعداد السكان		تقسيم السكان حسب الفئات العمرية				المجموع
				ذكور	إناث	تحت٦ سنوات	٦ ـ١٢	١٣ ـ ١٨	أكثر من ١٨	
أولاً	ذي قار	٤٠	٢,٣٠٩	٨,٦٨٨	٩,٢٠٥	٤,٧٣٧	٣,٧٨٠	٢,٤٩٤	٦,٧٥٢	١٧,٩٧٣
ثانياً	البصرة	٢٥	١,٩٥٣	١٠,٠١٧	١٠,٠٩٠	٥,٥٠٤	٥,٠٨٢	٣,٠٤٧	٦,٤٧٤	٢٠,١٠٧
ثالثاً	ميسان	٣٥	٢,٣٥٠	١٠,٠٤٢	١٠,٣٦٠	٦,٢٢٤	٤,٨٢٤	٣,٠٨٧	٦,٢٦٧	٢٠,٤٠٢
رابعاً	المجموع	١٠٠	٦,٦١٢	٢٨,٨٢٧	٢٩,٦٥٥	١٦,٤٦٥	١٣,٦٨٦	٨,٦٢٨	١٩,٤٩٣	٥٨,٤٨٢

المصدر : منظمة تطوير ثقافة عرب الأهوار " DMACO " المسح الاجتماعي الديموغرافي الاقتصادي للاهوار العراقية ٢٠٠٥-٢٠٠٦. قاعدة بيانات غير منشورة.

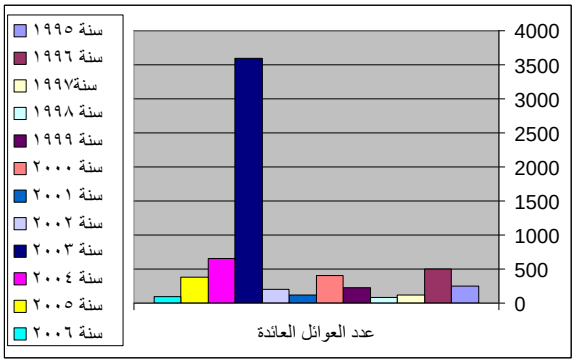

شكل رقم (١) يمثل عودة العوائل المهجرة إلى الأهوار خلال العشرة أعوام الأخيرة

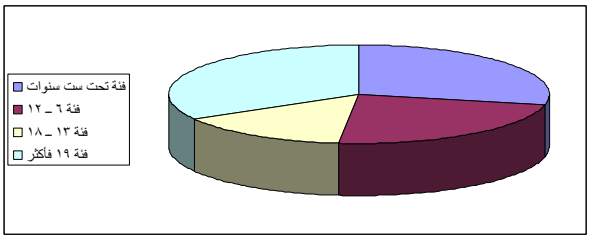

الشكل رقم (٢) يمثل الفئات العمرية لسكان أعماق الأهوار

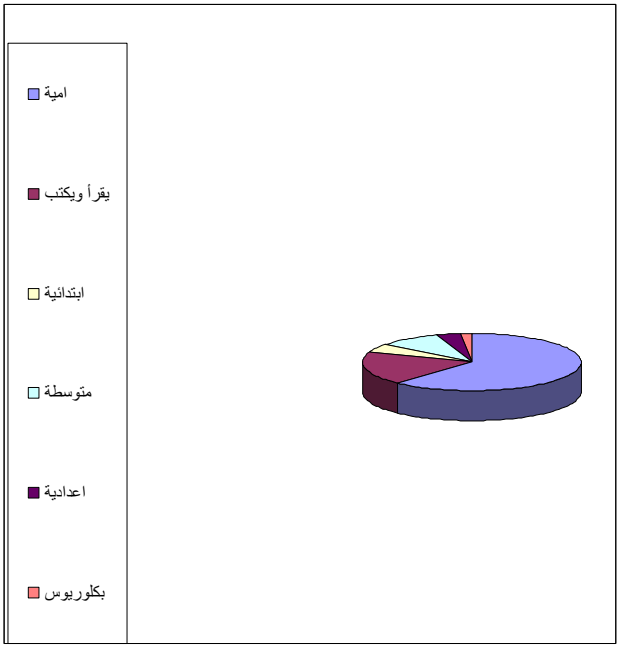

شكل رقم (٣) يمثل المستويات التعليمية لسكان أعماق الأهوار

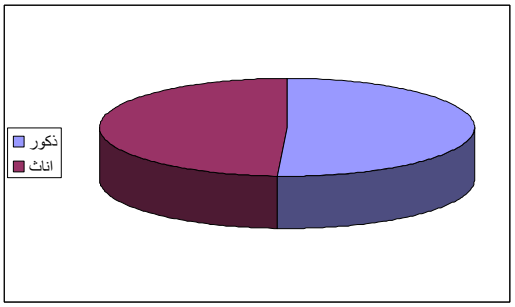

شكل رقم (٤) يمثل نسبة الذكور إلى الإناث في مجتمعات أعماق الأهوار

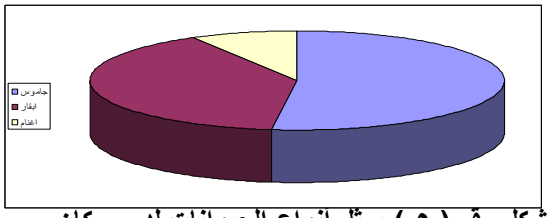

شكل رقم (٥) يمثل انواع الحيوانات لدى سكان أعماق الأهوار

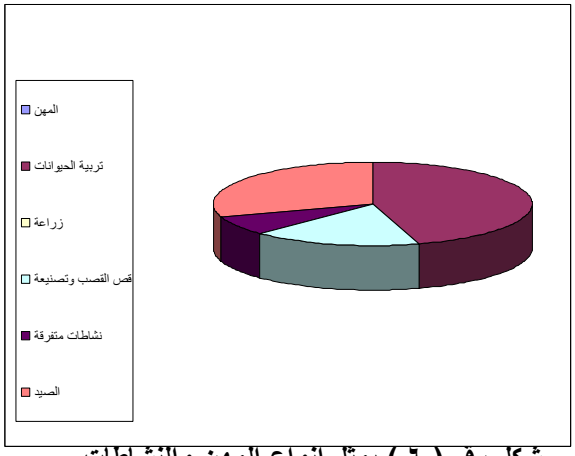

شكل رقم (٦) يمثل انواع المهن والنشاطات الاقتصادية التي يمارسها سكان أعماق الأهوار

الفصل الثالث

معوقات تطوير بيئة الأهوار العراقية

كنا قد اتفقنا خلال سير فقرات الدراسة على أن مفهوم البيئة في الأهوار ، أو اصطلاح " بيئة الأهوار" يشير إلى كلا فرعي البيئة " الطبيعي والاجتماعي " . وانهما أي هذين الفرعين يكمل بعضيهما الآخر ويتداخل معه من خلال التأثير المتبادل بين الطبيعة والإنسان . وأي كان نوع هذا التأثير سلباً أم إيجابا فإنه يشير إلى عَملية المعايشة أو عملية التكيف التي يمارسها الإنسان مع بيئة الأهوار الطبيعية . كما أن هناك أيضا عملية تطويع البيئة أو خلق فرص

حياتية من خلال تكريس موجودات البيئة لصالح أهداف الإنسان. ومن الطبيعي أن لا يخلو هذا الأمر من عملية إلحاق الأذى بالبيئة الطبيعية من خلال الممارسات الفجة التي يقوم بها الإنسان للحصول على مصادر رزقه ومثال ذلك عمليات الصيد الجائر للأسماك والطيور. وبالعودة إلى التذكير بفرعي بيئة الأهوار نستطيع أن نضع هذين التعريفين اللذين يجدهما الباحث أكثر تحديداً وهما :-

١. البيئة الطبيعية : وتضم جميع مكونات الطبيعة المتوافرة في الأهوار ، والتي تشتمل على الماء والهواء والتربة والنبات .... الخ ، وتعتبر الأهوار البيئة الأكثر تلاؤماً وموائمة مع شروط حياة هذه الأحياء.

٢. البيئة الاجتماعية: وتعني المجتمعات البشرية التي تعيش في الأهوار متكيفةً مع البيئة الطبيعية التي تعيش بين مفرداتها في أغلب الأحيان ، ومكيفةً تلك البيئة بما يتناسب معها في أحيان أخرى . ولقد اشرنا لأكثر من مرة في هذه الدراسة إلى أن الأهوار ليست محمية طبيعية ينظر أليها من خلال مفرداتها في الماء والنبات فحسب ، وإنما وقبل ذلك هي بيئة تحتضن مجتمع إنساني يعيش في ظلها ، ويتعامل معها ، ويتناغم مع إرهاصاتها له مميزاته وخصائصه الفريدة نوعاً ما ، وله أيضا عاداته وتقاليده وأفكاره وقيمه ومعتقداته التي تشكل نسقه الثقافي في البناء الاجتماعي الخاص به .

والآن يمكننا أن نناقش مجموعة من المعوقات التي يعتقد الباحث أنها وقفت ولا زالت تقف في طريق التغيير الحقيقي والشامل الذي يمكن أن يحدث بصورة مقصودة وفق برامج مدروسة هدفها الرئيس الارتقاء بإنسان الهور إلى آفاق جديدة يعاد فيها بنائه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي،بناءا يكون فيه الإنسان هو القيمة المثلى والرقم الأول من بين جميع الاعتبارات الأخرى.ويعتقد الباحث أن هذه المعوقات تتمحور في جزءها الرئيس في تقصير الدولة العراقية الحديثة بحق بيئة الأهوار بجانبيها الطبيعي والاجتماعي منذ تشكيل هذه الدولة في عام ١٩٢١ وحتى اليوم . ويمكن شرح هذه الفقرة بمجموعة النقاط الفرعية التي تشير إلى مختلف أنواع هذا التقصير المقصود تارةً ، وغير المقصود الناتج عن الإهمال تارة أخرى ، وأهم هذه الصور وأكثرها مأساوية وإيلاما هي التالية:-

أ. عدم شمول الأهوار بأية برامج وخطط حكومية يمكن أن تتحول إلى مشاريع تنموية للبشر والطبيعة طوال التسعة عقود الماضية . لقد بدت الأهوار وكأنها عبئاً على جغرافية البلد ، فلقد كانت الصحراء المجدبة أكثر أهمية بنظر الساسة والمخططين في الدولة العراقية من الأهوار . لقد ضلت بيئة الأهوار على سجيتها ولم يقدم إليها أي شيء ملموس يمكن أن يحدث صدمة في رتابتها التي اعتادت عليها منذ قرون خلت . وحتى عندما حدثت هذه الصدمة فأنها كانت سلبية قلبت الأمور رأساً على عقب وكانت النتائج دائماً في غير مصلحة الأهوار " طبيعتها وسكانها " .

ب. لقد عجزت الدولة العراقية حتى عن التصنيف الموضوعي للبنية السكانية للبلد. وهكذا فقد خلت مفردات التخطيط ومفاهيمه داخل العراق من مفردة اسمها "سكان الأهوار " . أننا ومهما فتشنا في سجلات الإحصاء السكاني في العراق والذي بدء بشكل رسمي منذ عام ١٩٤٧ وكان يجري كل عشرة أعوام كان أخره عام ١٩٩٧ ، فإننا سوف لا نجد أي إشارة لمصطلح سكان أهوار . لقد كان يتم ضم مناطق الأهوار التي تصل إليها فرق المسح إلى اقرب ريف منها حتى لو كانت المسافة بينها وبينه عشرات الأميال ناسين أو متناسين أن مجتمع الريف هو غير مجتمع الهور ، وبذلك فقد كان يتم ارتكاب الخطأ الفاحش الأول التي تستند عليه أهرامات الأخطاء الكبيرة والصغيرة تجاه الأهوار في العراق.

ج. لقد كان عدم القدرة على التصنيف أو الإهمال المقصود عن عدم التصنيف الدقيق أهم وأخطر الأخطاء المنهجية التي توارثتها مؤسسات التخطيط في العراق ، ولم يكن ينظر إلى الأهوار إلا من جانب أنها بيئة ساحرة عند البعض ، أو بيئة تضم فرق معارضة للدولة عند آخرين ، أو بيئة غامضة تختبئ فيها فرق الجن " الطناطل والسحالي" عند فريق ثالث ، بينما ينظر إليها طرف رابع على أنها بحيرة كبيرة تعيش فيها مختلف أنواع الأسماك والطيور ، وكانت هناك أيضا طرف خامس أكثر خبثاً ولؤماً من هؤلاء جميعاً كان همه الإساءة إلى سكان الأهوار وتحويل مفردة " معيدي" إلى وصمة أزلية ملتصقة بهؤلاء السكان وكأن الله سبحانه وتعالى قد خلقهم هكذا ولايمكن تغيير صورتهم بأي حال من الأحوال.

د. عدم الاهتمام الجدي في إعادة صياغة الوعي الثقافي لسكان الأهوار ، لا من خلال المؤسسات الرسمية المتمثلة بالمدرسة ، ولا عن طريق المؤسسات الأخرى التي تمثلها وسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية .

ه. عدم وضع الأهوار ضمن خطط الأعمار التي كانت تقوم بها الدولة في باقي المناطق وأهم هذه الفترات كانت الأولى تلك التي تلت اتفاق الدولة العراقية مع شركات النفط الأجنبية في بداية الخمسينات وحصول العراق على ما نسبته ٥١% من عائدات النفط والتي تشكل مجلس الأعمار على أثرها ، والفترة الثانية كانت خلال العهد الجمهوري الأول "١٩٥٨-١٩٦٣" والفترة الثالثة كانت بين ١٩٧٥- ١٩٨٠ . أن هذه

الفترات الثلاثة شهد العراق فيها نمواً ملحوظاً ، إلا أن الاهوار كانت بعيدة عن أية مكتسبات أنجزتها الحكومات العراقية خلال هذه الفترات الثلاث .

و. قيام الدولة بإنشاء مجموعة كبيرة من السداد لغرض حماية حقول النفط المحاذية للاهوار وقد ساهم ذلك في زيادة مناسيب المياه إلى الحد الذي اضطر كثير من السكان مغادرة الأهوار على شكل هجرات إلى المدن .

ز. الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠ – ١٩٨٨ وما نتج عنها من تهجير وتشريد مئات القرى التي كانت مستقرة وكان الكثير منها في طور التحول إلى الريفنة " نسبةً إلى الريف " وإرغام هذه القرى على النزوح إلى مناطق أخرى . لقد خلقت هذه الحرب أزمة نازحين كبيرة تعرض فيها البناء الاجتماعي لسكان الأهوار إلى التصدع والانهيار في أحيان كثيرة.

ح. التلوث البيئي الكبير والمعقد الذي تعرضت له الأهوار نتيجة سياسات الدولة العراقية والذي ظهر بصورة واضحة منذ بداية عقد السبعينات . لقد تمثل ذلك بتلويث التربة والمياه والهواء بأنواع الملوثات التي كانت ناتجة عن عدة عوامل أهمها:-

١. سوء إدارة الدولة في العراق للمياه عندما قامت بإنشاء مجموعة كبيرة من السدود والخزانات من نقطة دخول دجلة والفرات للأراضي العراقية وحتى سدة الكوت على دجلة والهندية على الفرات . وكأن المقصود بها الإضرار بالجنوب العراقي في محافظاته الثلاث " بصرة ، ذي قار ، ميسان " . بصورة عامة والأهوار منها بصورة خاصة.

٢. تلويث التربة من خلال تلويث الماء الذي كان يصل إلى جنوب العراق فاقداً لأغلب عناصره الغذائية وحاملاً كميات كبيرة من الملوثات الناتجة عن عمليات الصرف الصحي والمخلفات الصناعية التي كانت تذهب بصورة مباشرة إلى مياه النهرين .

٣. ساهمت الحروب في تلويث بيئة الأهوار بآلاف الأطنان من الألغام والصواريخ والقنابل والقذائف غير المنفلقة والتي ظل الكثير منها وحتى اليوم يشكل مصادر موت أو إعاقة لهؤلاء السكان . أما مخلفات الحرب من الأسلحة غير التقليدية والتي كانت تحمل عناصر مشعة أو غازات سامة فقد أهدت سكان الأهوار إصابات سرطان في الحنجرة والقصبات والكبد والدم وغيرها .

٤. قيام الكثير من سكان الأهوار وسكان المناطق الريفية المحاذية لها بعمليات الصيد الجائر للأسماك والطيور من خلال استخدام السموم والصعق الكهربائي ، وقد أدت هذه العمليات الفجة إلى الأضرار بالنظام الحيوي للأهوار ولم تكن هذه الممارسات وليدة الفترة الراهنة بل كانت منذ عقد الثمانينات دون أن تضع الدولة قوانين صارمة لمعاقبة المخالفين والحفاظ على البيئة هناك.

ط. نكبة التجفيف وما نتج عنها من تشريد وتهجير وما رافقها من عمليات مطاردة وتنكيل واعتقالات وقمع بعد عام ١٩٩١ ، اكتملت حلقاتها في الربع الأول من العقد الأخير من القرن العشرين عندما تم تحويل الأهوار العراقية من مسطحات مائية كبيرة بلغت فيها اللونين الأخضر والأزرق إلى بيئة هجينة مغبرة وقاتمة ولا يمكن نكران الآثار السلبية لهذه النكبة واستمرارها طويلاً ليس على مجتمعات الأهوار والمجتمعات الريفية المحاذية لها وإنما على مجمل البناء الاجتماعي في جنوب العراق.

ي. قيام الدولة العراقية الجديدة بعد عام ٢٠٠٣ بمجموعة من الخطوات التي ساهمت في تكريس مأساة الأهوار " طبيعة ومجتمع " وزادت في معاناتها . ويمكن تلخيص ذلك بالنقاط التالية:-

١. الخطأ الكبير الذي وقعت به الدولة العراقية عندما تم تصنيف الأهوار على أنها " ماء ونبات" فتم أيكال مهمة تطوير الأهوار إلى وزارة الموارد المائية بالدرجة الأساس ووزارتي البيئة، والأشغال والبلديات في الدرجة الثانية.

٢. غياب الحكومة عن التخطيط والتنفيذ والرقابة والإشراف بصورة شبه تامة وكأن ما يحكى عن الأهوار لا يعني الدولة العراقية وبذلك فقد تركت لأي جهة من الجهات التي أوكلت إليها عملية التطوير المزعومة العمل دون متابعة . لقد أبدعت هذه الجهات "رسمية وغير رسمية " إثناء عملها طوال السنوات الأربع الماضية في كل شيء إلا في شيء واحد هو التطوير نفسه.

٣. عدم سيطرة الدولة على المنح العالمية التي وزعت على الجهات الرسمية وغير الرسمية والتي انتشرت على أثرها حمى المؤتمرات وورش العمل والدورات وعمليات المسح التي كانت تتم في المقاهي والمكاتب ، وكانت ملايين الدولارات تهدر في أشياء فوضوية وغير منطقية يتم من خلالها مناقشة أمور وأشياء هلامية ليس لها حدود واضحة . ففي الوقت الذي كان يعيش فيه سكان الأهوار حياتهم البائسة ، كانت ولا زالت تقام حفلات افتتاح واختتام المؤتمرات الباذخة في فنادق الدرجة الممتازة في عمان والقاهرة وروما ومونتريال وطوكيو ، على شرفهم . لقد كان كثير من هؤلاء السكان يعيشون حالات الضنك والعوز المادي وسوء التغذية والفوضى في المنازل والطرق والعمل مفتقرين لأبسط الخدمات التي يمكن أن تميز إنسانيتهم عن الحيوانات التي يقتنونها . أن الأموال التي كانت تصرف على ورشة عمل واحدة خارج العراق أو واحد من مؤتمرات " المفطح " الذي أقيم

داخل العراق يكفي لتزويد عشرة قرى بمحطات تنقية وتحلية للمياه وببناية بسيطة لمدرسة ابتدائية وتزويدها بالكهرباء وفرش طرقها بمادة السبيس وحصولهم على خدمات صحية مجانية من مستوصفات متنقلة تخدم مجموعة اكبر من القرى. فما بالك بالـ (٢٠٠) مليون دولار التي جاءت عن طريق المنحة الكندية والتي تم تحويل هور أبو زرك في محافظة ذي قار إلى "جنة عدن " على الورق فقط . لقد كانت المناقشات تشمل الهائمات المائية والنباتات والأدغال وعكورة المياه ... الخ دون أن يتم تذكر أن هناك إنسان يعيش في هذه البيئة في ظروف بيئية واجتماعية واقتصادية وثقافية وصحية بائسة للغاية هي أدنى بكثير من الظروف التي كان يعيش فيها أجداده السومريون قبل ستة آلاف عام .

التوصيات والمقترحات

١- اعتراف الدولة العراقية بفشلها الذريع في عملية إنعاش الاهوار طيلة الأربعة أعوام والخمسة أشهر الماضية ، ووجوب اعتمادها خططاً علمية جديدة لإعادة تقويم وتعديل عملية الإنعاش هذه من اجل النهوض بواقع الاهوار .

٢- تشكيل هيئة حكومية مستقلة لإدارة إنعاش وتطوير الاهوار ، تتكون من مختلف الاختصاصات العلمية والإدارية التي لها علاقة بالاهوار ، تكون مسؤولة بصورة مباشرة أمام مجلس الوزراء بدل من تشكيل وزارة شرفية لاتساهم في تطوير الاهوار بأي حال من الأحوال .

٣- عدم الفصل بين البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية في الاهوار لان كلا الجانبين له علاقة بالآخر.

٤- وضع خطة طوارئ مركزية مهمتها الإسراع في تنفيذ البرامج الكفيلة في وضع أسس وإنشاء البنى التحتية من شبكات كهرباء وماء وطرق وصرف صحي ، ومن مدارس ومراكز صحية ومستوصفات بيطرية وحدائق وساحات لعب ... الخ .

٥- اعتماد مقررات وتوصيات المؤتمرات العلمية الرصينة التي تقام من اجل الاهوار بدلاً من أن تكون هذه المؤتمرات مجرد تظاهرات إعلامية تنسى بعد يوم واحد من حفل اختتامها .

٦- تشجيع عملية البحث العلمي في الاهوار ، لاسيما الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية والديموغرافية والاقتصادية والتي تفتقر إليها بيئة الاهوار في العراق بصورة واضحة جداً .

٧- تشجيع المؤسسات والهيئات الحكومية ومنظمات المجتمع المدني في قطاعات التربية والتعليم والصحة والبيئة وحقوق الإنسان على إقامة دورات ووورش عمل ميدانية لأجل تأهيل السكان في هذه المناطق

٨- الاهتمام بالطفل والمرأة في مناطق الاهوار لأنهما يمثلان الشرائح الأكثر تضرراً من بين الشرائح الأخرى في ضل الثقافة التقليدية المسيطرة في هذه المجتمعات .

الهوامش

(١)E.b.tylor:"primitive culture" London, 5thed 1913.pp3-4.

(٢) علاء الدين جاسم ألبياتي ، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ، مؤسسة الأعلمي ـ دار التربية (بيروت – بغداد) ، ١٩٧٥ ، ص ١٥ .

(٣)Clyde klukhohn and William Kelly "the concept of culture" the sconce of man in the world crisis.ed Ralph linton"n.y" Columbia university press,1945,pp.95-99 .

(٤) لوسي مير ، مقدمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة شاكر مصطفى سليم ، دائرة الشؤون الثقافية بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٣٨٨ .

(٥) لوسي مير ، نفس المصدر ، ص ٣٥٧.

(٦) منظمة تطوير ثقافة عرب الأهوار " DMACO " المسح الاجتماعي الديموغرافي الاقتصادي للاهوار العراقية ٢٠٠٥-٢٠٠٦. قاعدة بيانات غير منشورة.

(٧) نفس المصدر .

(٨) نفس المصدر .

المصادر العربية

(١) علاء الدين جاسم ألبياتي ، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ، مؤسسة الأعلمي ـ دار التربية (بيروت – بغداد) ، ١٩٧٥ ، ص ١٥ .

(٢) لوسي مير ، مقدمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة شاكر مصطفى سليم ، دائرة الشؤون الثقافية بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٣٨٨ .

(٣) منظمة تطوير ثقافة عرب الأهوار " DMACO " المسح الاجتماعي الديموغرافي الاقتصادي للاهوار العراقية ٢٠٠٥-٢٠٠٦. قاعدة بيانات غير منشورة.

المصادر الأجنبية

(١)E.b.tylor:"primitive culture" London, 5thed 1913.pp3-4.

(٢) Clyde klukhohn and William Kelly "the concept of culture" the sconce of man in the world crisis.Ed Ralph linton"n.y" Columbia university press,1945,pp.95-99.